

## كفاحي الثقافي واختباراتي الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهي تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش في بيئة زراعية مثلاً ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شؤونه مستعمرون مثلاً . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ حين تقرر لنا حقوق الدستور كإب مجتمعنا فيها منفصلاً من الإدارة الحكومية . وكان المتولون من الإنجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمي أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة « المحيط » فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه « المقتطف » بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشؤون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعاً للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فأتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات « المقتطف » و « الهلال » و « الجامعة » ، من المحركات الذهنية ، بل أكسبتنى هذه المجلات توجيهها تجديداً فى العلم والأدب . وكنت قانعاً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من « المقتطف » البذرة الخصبية فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من

المؤلفين والمفكرين، وغرست في مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشعب الكفاح من هذه البؤرة إلى موضوعات أخرى؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجي . كما أن مغزاها الخطير في التفكير العلمي والاجتماعي جعلني دائم الشك كبير الاستطلاع والمساءلة، وتغيرت الأوزان والقيم عندي، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على غنجاتها في « مقدمة السبرمان » .

ففي هذه الرسالة أجدني أقول بالاشتراكية واليوجينية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لايجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبىزى منا . وقد كان التفكير عندي في هذه الشؤون أقرب الاشياء إلى ما يمكن وصفه بأنه « غيبيات » علمية، أخذت مكان الغيبيات الدينية وقتئذ . وفي السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة ( ١٩٠٩ ) نشرت مقالا في « المقتطف » بعنوان « نيتشه وابن الانسان » وفي « الهلال » مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ « الاجتماعية »؛ وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائمة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة في هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كى تطبع . فردتها إلى المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة . وكنت فى لندن ، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء ، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمانى . وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً ، وهى تدل على اهتمامات المتكلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهاً . وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور ، العالمية ، حرية المرأة ، العلوم ، الحضارة الصناعية ، الرجعية ، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يساريًا ، وفى الأغلب ارتياديا . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتياديين ، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلا من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استعراضاً ديمقراطياً فى جميع ما كتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع

والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفى من حيث إنى كاتب مذهبى يسارى أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الإقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية فى الأمم العربية .

وقد كانت حياتى الصحفية فى مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » فى ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكرى ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت ١٦ عدداً ، وكان شبلى شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلال ثم بالبلاغ . وفى هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همى الأول واهتمامى الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهناك ثلاثة كتب هى « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد فى الأدب الانجلىزى الحديث » نشرتها كلها فصولاً متتابعة فى « البلاغ » قبل أن تجمع فى كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضى فى هذه البحوث .

أما « الهلال » فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملى فيه أن أولف كل عام لقرائه كتاباً جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أؤديها على سبيل الواجب الحرفى . ولم تكن تكلفنى مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملنى على البحث والدراسة ؛ فكنت أولف وأنا أتعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التى ألفتها وأنا بالهلال ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التى علمتنى وأمدتنى بالغذاء الذهنى سنوات . بل حتى المقالات التى كنت أنشرها فى « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماماً ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « فى الحياة والأدب » . وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً . وذلك

أنى كسبت تربيتى ، كما كسبت هذا التغير الذى وجدته فىمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور والانقلاب ، وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار فى القاهرة بشأن التجديد فى الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلى :

- ١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .
- ٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحجية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تشر .
- ٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجاني أو ابن الاثير أو ابن رشيق .
- ٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شؤونه ويندغم فى مشكلاته .
- ٥ — أن توجد القصة والدرامة المصريتين .
- ٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعدُّ ناسكا . فإن المؤلف يتزوى فى غرفته باحثاً منقياً ، ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافياً فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولكن أعظم ما يعزبى أن ما عصفت بى كان أيضا يعصف بالأمة ، وأنى فى كفاحى الصحفى كنت أ كافع للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرموننا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى « اللواء » فى ١٩٠٩ ؛ فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون ، وكان يرأسنا رجل مهذب كان يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرياسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر ، وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهند » . وقد بقى فرح طيلة عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش بالاستنكار أمامى ويتعادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من « اللواء » مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للمخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد «مقالية» أكثر مما كانت

خبرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتّاب الجريدة محررين .

ولما تركت « اللواء » وعدت إلى أوروبا بقيت الصحافة خيالاً ساحراً فى ذهنى . ورجعت إلى مصر واستطعت فى ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة « المستقبل » الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد الرابع عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق ، وكان لا بد أن أعطلها ، ولكن التعطيل جاءنى بطريق آخر . فى ذات يوم وأنا افكر فى مشكلة الورق طلبتنى إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير عابئ بما يحدث ، وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد . وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذى حيانى وطلب لى القهوة ، وجعل يلاطفنى بكلمات عذبة ، ويسألنى عن المجلة وهل هى رابحة أم أنى أخسر فيها . ثم بعث فى طلب رجل إنجليزى . جاء وقعد هذا قبالتى يستمع دون أن يتكلم . ثم شرح لى هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف ( أى تعطيل ) بعض المجلات . ومع أنى لم أكن أبالى التعطيل ، كما قلت ، فانى وجدت فتنة سيكلوجية فى متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الإنجليزى ، فأبدت أنى قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنى سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأنى سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السورى يخاطبنى فى ملاطفة مسرفة ويقول لى أستاذ وعافل . . . الخ . وأصررت أنا على العناد .

وأخيراً صرح ، فى غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل ، وأن المناوئين للحكم فى الظروف الحاضرة الشاذة يمكن نفيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فهضت وقلت لى سأعطل المجلة ، وخرجت .

وأرسلت لى ميمى عقب التعطيل خطاباً تطلب منى أن أحرر « المحروسة » وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها مجلة أشهر سئمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التى كانت تفرضا إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارت ميمى وموانستها لنا من وقت لآخر ؛ فقد كانت حلاوتها تتمرج بظرف ورقة .

وبقيت طيلة الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سننى

هذه الحرب في الريف في عزبتنا بالقرب من الزقازيق . وكانت تلك الأيام بمنابة الحضانه . فقد أكتب على القراءة الجدية في الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز في الزقازيق كي أرجوه في الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب ، ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والآلاف . ولم أكن أتججج في تخليصهم إلا بالرشوة .

وسئمت الركوند الريفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة في ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث ، وحتى أجد منفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقق لى ذلك ؛ فإني بعد أن اشتغلت بالتعليم في مدرسة التوفيق قليلاً اشتركت في تحرير «الهلل» ، واشتركت أيضاً في تحرير «البلاغ» . وانغمست في السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة ، وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتاب الأفاضل إذا نشب في موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيهاً في حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد في ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت «المجلة الجديدة» في أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت «المصرى» في السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعياً . وكانت الدعوة في كليهما تحريرية في الثقافة والسياسة . وعصفت بنا في ١٩٣٠ عاصفة سياسية في وزارة إسماعيل صدقي باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيداً عن الديمقراطية ، وألغيت مجلتاى . وكان قد شرط في قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدي تأميناً قدره ١٥٠ جنياً . فأديت التأمين نقداً . ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى في ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار «المجلة الجديدة» بضمان عامل في المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا في مصر : في وزارة ما يرفض التأمين النقدي ، وفي وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفي بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعنى كي أحرر مجلتها . وقبلت لأنى وجدت أن الفرصة تتيج لى الإرشاد

المصرى والتوفففة الاجئامى . وبقففة أكتب فى هذفة المءلة نءو سنئف . وكانئ مءالائى فوفع عفلفا بامضاءئ أوئ نشر بلا إماء . فإذا راءئ المشرففن عف المءلة فوضع لها إماء عفرفى ولو لم ئكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذفا العمل مئاراً للسخرفة أءفانا وللأسف أءفانا .

وئئئ أئناول عئشرفن ءئفها راءباً شهرفا عفئئئ حررفر دون أى اشئراط عفئ القدر الذى أكتب أو عفئ مواظبة الءضور . فكان فمضى الشهر دون أن أءضر للوزارة ، وئئئ أكتب أى قدر شئئ من الصفءاء . ولكن الوزارة ضئئ عفئ بفهذة الءرففة مع صغر الرائب . فألفئفه وعفئئ أربعمف قرشاً للصفءة الواءدة . ورأفئ آءر الشهر بعء هذفا النظام أن كل ماءصلئ عفلف هو ءئفهان فقط . فئركئئ الحررفر .

وئئئ طفلة عملئ بالوزارة أصدر « المءلة الءءفدة » أفضاً . وبقففة عفئ ذلك إلى ١٩٤٢ ءفن سلئئها لبعض الإءوان الأصءقاء كئ فقوموا بنشرها وكئ أءئص أنا فى الحررفر السفاسى . ولكنهم نزعوا نزعفة ءفمءراففة مسرفة لم ئرض الاسئءمار ، فألفئئ فى ئلك السنة بأمر عسكرفى .

وفى السنة ئالفة اشئرفئ امئفاز ءرففة فومفة . وقلئ إءارة المءبوعاء نقل الامئفاز الذى أثبئ ففءه أنها « فومفة » وءكر ففء الضمان بأنه ٣٠٠ ءئفءه أى ضمان ءرففة فومفة . وبعء أن قبل كل هذفا وبعء أن اسئءءءئ لإصءار هذفة الءرففة الفومفة أفلئئ وزارة الوءء . وفى الفومئ ئالئ للاءالة فى أءئوبر من ١٩٤٤ أبلغئئ إءارة المءبوعاء أن الءرففة شهرفة وأنه لا فمءوز لئ أن أصدرها فومفة .

وعءما أءارن بفن صءافة الءفل الماضئ (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصءافة الءفل الءاضر ، أءء أنا قد ئقدمنا وئآءرنا . أءل ! ئقدمنا فى فن الطبع والإءراء ئقدمنا عظفما ءءاً ، فإن ءرائءنا ومءلائنا ئءل عفئ رفقئ فئئ فاضراع أعلى المسئوفاء الصءففة فى أوربا . ولكننا من ءفءئ الحررفر ئآءرنا ؛ إءل فئس عءنا الآن من المءرفرفن من فاضراعون مصطفى كامل أو عفئ فوسف أو لطفئ السفء . وقد مات عبء القاءر ءمزة وهو آءر هذفا الءفل المنقرض .

ولكن هئاء مع ذلك علامفة ءسنة فى الصءافة الءءفءة ، هى عئافئها الءبففة بالآءءار المءارءفة ؛ فإن هذفة العئافة ، الئى كان مبعئها الءرفرفن الآءرفئفن ،

تنير القراء وتريهم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الراوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن .

وقد دلتى اختباراتى فى السياسة والثقافة أن مقالين فى السياسة أحياناً يعودان بمثل الرجب المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فإن التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهووسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

وذاث مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الأربكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والقتل واحتياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمنى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذا كرتى تعرض فلم حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعدادت نحو عشرين كتاباً ألفتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت الجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الحشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشائى الذى قررت لى الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجدّ التفكير وعقلى يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقفة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالقان .